والجهاد في غرب أفريقيا».
رغم تباعد تصورات الطرفين، إلا أنّ «الحركة الوطنيّة لتحرير أزواد» وقّعت اتفاقاً مع «حركة أنصار الدين» (الطرف الجهاديّ الأبرز في المنطقة حينها)، نصّ على اندماجهما وتأسيس «دولة إسلاميّة». لم يصمد التفاهم طويلاً، إذ رفضت «الحركة الوطنيّة» تغليب شروط «أنصار الدين»، ما أدى إلى دفعها نحو هوامش المدن الرئيسة.
وفي ظلّ استمرار الصراع وتفاقمه، فإنّ خريطة «الجماعات الجهادية» اليوم ثبتّها، في بداية آذار من العام الماضي، إعلان أربعة تنظيمات اندماجها وتأسيس «جماعة نصرة الإسلام والمسلمين في المغرب الإسلاميّ»، وتعيين إياد أغ غالي «أميراً» عليها. ويحمل هذا الاندماج دلالات مهمّة، إذ تُمثّل الجماعات المتحدة الاثنيات الثلاث الرئيسة في شمال مالي: تتكون «حركة أنصار الدين» من الطوارق، وتتكون «كتائب تحرير ماسينا» من الفولاني، فيما يتكوّن «تنظيم القاعدة في المغرب الإسلاميّ» وتنظيم «المرابطون» أساساً من العرب الماليّين وكذلك من الآتين من شمال أفريقيا. إلى جانب ذلك، يُمثّل الاندماج رسالة مفادها أنّ تنظيم «القاعدة»، وعلى عكس ما يُشاع، يزداد قوّة وثباتاً، وأنّ «داعش» الذي أعلن فرعاً له في المنطقة تحت اسم «الدولة الإسلاميّة في الصحراء الكبرى»، والذي يتزعمه عدنان أبو الوليد الصحراوي المنشق عن تنظيم «المرابطون»، ليس إلاّ طرفاً ثانويّاً.

### «حرب هولاند»

في نهاية عام 2012، ومع تزايد الأنشطة الدعائيّة لـ«الجماعات الجهاديّة» وتنامي خطرها، دعا «مجلس الأمن والسلم الأفريقي» إلى حشد الدعم لقوات دول غرب أفريقيا، وتلى ذلك قرار من مجلس الأمن الدولي بإنشاء «البعثة الدوليّة بقيادة أفريقيّة لدعم مالي». لكن فشلت الاجتماعات التي حضرها عدد واسع من البلدان في جمع مبلغ 959 مليون دولار، اللازم لتأمين تدخل 8 آلاف جنديّ أفريقيّ، في وقت كانت فيه فرنسا لا تزال تلعب دور الداعم، من دون إبراز نيّة للتدخل المباشر. من جهة أخرى، يوضّح الضابط والمؤرخ الفرنسيّ ميشال غويا، في مقال تحليليّ بعنوان «حرب الأشهر الثلاثة»، أنّ «الجهاديّين لم يتوقعوا

> على عكس ما يُشاع، يزداد «القاعدة» ثباتاً هناك، فيما «الدولة» طرف ثانوي

مشاركة فرنسيّة»، في وقت لم ترغب فيه أيّ من القوى الكبرى المشاركة أيضاً، خاصّة بعد النتائج المدمرة للتدخل العسكريّ الغربي في ليبيا، والذي كان مدعوماً خليجياً.
كانت فرنسا القوة الوحيدة القادرة على التدخل، ويعود ذلك أساساً إلى وجودها العسكريّ في البلدان المجاورة لمالي: ساحل العاج، الغابون، بوركينا فاسو، والتشاد. ويوضّح وثائقيّ «خليّة أزمة»، الذي عُرض على قنوات فرنسيّة، أنّ الاستخبارات العسكريّة الفرنسيّة «كانت تتابع تحركات الجهاديّين منذ بداية الأحداث، وقد قدّرت عددهم (حوالى 1500 مقاتل) وأماكن تمركزهم وقوّة عتادهم». مع ذلك، لم تحضر الإرادة السياسيّة للتدخل «إلاّ عند تقدير إمكانيّة توسّع الهجوم الجهاديّ جنوباً، وتهديد وجود السلطة المركزيّة»، ما يُمكن أن يمسّ بمصالح فرنسا في منطقة تعتبرها «مجالاً استراتيجيّاً»، ومكوّنة من مستعمراتها السابقة (تعتمد فرنسا مثلاً على اليورانيوم المستخرج من النيجر لإنتاج ثلث الطاقة التي تولدها مفاعلاتها النوويّة، إضافة إلى هيمنة شركاتها على القطاعات الاستخراجيّة الأخرى في مجمل المنطقة). وهكذا، أعلن هولاند، في 11 كانون الثاني/ جانفي، بطلب من السلطات الماليّة ومن دون موافقة من مجلس الأمن، بدء عمليّة «سرفال»، التي تمثّل العمليّة العسكريّة الأكبر لفرنسا ـ خارج التحالفات ـ منذ الثورة الجزائريّة. (انتهت العملية في تموز/ جويلية من العام نفسه وعوّضتها العمليّة «برخان» المستمرة إلى الآن و«الساعية لمقاومة الخطر الجهاديّ على امتداد منطقة الساحل والصحراء» بوجود 12 ألف جندي فرنسي).
الحضور القوي لفرنسا راهناً، والمساعي التي يُطلقها حالياً الرئيس إيمانويل ماكرون، تقابلهما صورة قاتمة تُهيمن على «مجموعة دول الساحل الخمس»، إذ إنّها لم تنجح بعد أربع سنوات من التأسيس في إطلاق القوّة العسكريّة المشتركة بينها. يُقال إنّ العائق الأساسيّ أمام تشكيل القوة هو المسألة الماليّة (متوقع أن تُطرح مرة أخرى في إطار مؤتمر تمويل جديد تحتضنه بروكسل في 23 من هذا الشهر)، لكنّ عدداً من المراقبين يتساءلون اليوم عن مدى جديّة التحجّج بالعوائق الماليّة، خاصّة أنّ الحديث يدور عن جيوش خمسة بلدان «مدعومين فرنسياً» في مقابل «بضع مئات من المقاتلين الجهاديّين». ولعلّ الأخطر من ذلك أنّه في الأثناء، ظهر «الرأس الأميركي» الذي لم ينخرط في «حرب 2013»، من النيجر قبل ثلاثة أشهر، حيث قُتل له أربعة جنود من القوات الخاصة في طريق عودتهم من مهمة عسكريّة في شمال البلاد، في مشهد يُثبت أنّ منطقة الساحل برمتها ستبقى، في ظل تراجع قدرات الدول المحلية، محاصرة بين «الطموحات الجهادية»، وتصورات «المشاريع الغربية»، ليشكّلوا جميعاً «حرّاس الخراب» لمساحة جغرافية لم يعرف سكانها إلا «العيش خارج الحياة»، كما تقول أقسى التعابير.

في ظلّ الحديث الحالي عن توجّه «الجهاديين» نحو سيناء المصرية أو «الصحراء الكبرى» الشاسعة، لا بدّ من التذكير بحوار أجراه عام 2016 الباحث الفرنسي في العلاقات الدولية برتران بادي (الصورة)، يقول فيه إنّ الصراع في الساحل يجمع (في بعده المحلي) بين تحلّل المؤسسات السياسيّة والدولتيّة، والانعدام شبه الكامل للأمن ولعقودها الاجتماعيّة، إضافة إلى ضعف شديد في النموّ الاقتصاديّ ـ الاجتماعيّ، لافتاً إلى أنّ القوى الكبرى لم تعد ترسم الحدود والصراعات، إذ تقلّص دورها إلى التفاعل أو السعي للاحتواء. ولعلّ في هذا الرأي، خاصة في شقّه الثاني، ما يكفي من أسباب لاستعار الصراعات مستقبلاً بين «حُرّاس الخراب»... كدول وكجماعات

يمكن أن يُسقط نوعاً كهذه الأنظمة». وفي نظره، أنه ما دامت هناك عراقيل لوجستية وتنظيمية، فإنه لا يمكن القيام بذلك «التصدي الجهادي».
ومن هنا أيضاً، اعترض ولد الوالد ـ كما يقول ـ على إعلان «القاعدة» لـ«الجهاد على أميركا»، الذي دفع أسامة بن لادن، بالتنظيم، إليه دفعاً. وهو كان يرى في ذلك الإعلان، «بما فيه من مغامرة شجاعة»، مجرد انتحار ذاتي غير مدروس العواقب ولا حتّى السبل. وقد تَنبّه حينها إلى أن قرار «الجهاد ضدّ أميركا»، الذي جاء في المرحلة الأفغانية الثانية (1996 ـ 2001)، سيُعرِّض أفغانستان للغزو، وبالتالي «سقوط إمارة أفغانستان الإسلامية في يد الأميركان».
عندما خرجت «القاعدة» من السودان (1996) بضغطٍ من السعودية، بقي في السودان يُكمِّل دراساته العليا، وهذا جعله يبتعد قليلاً عن المشهد الحركي لـ«القاعدة» في أفغانستان وعما خُطّط له من تفاصيل عملية وعسكرية وتنفيذية، ومنها ما يتعلّق بـ11 أيلول/سبتمبر مثلاً. وباستثناء أنه كان يعلم بأن هناك «حدثاً جهادياً كبيراً سيحدث في أميركا»، فإنه لم يكن يعرف شيئاً عن تفاصيل تلك العملية الدقيقة. كذلك فإنه أيضاً كان، وفق ما يذكر، معارضاً لها كلياً «من زاويةٍ دينية متأنية» ترى أن الجهاد ليس مقتصراً فقط على قتل الناس والتخريب في الأرض. زد على ذلك أن ولد الوالد اعتبر أن النتائج الكارثية للعملية ستكون أكثر من المردود الإيجابي لها على الإسلام والمسلمين في شتى بقاع العالم، وخصوصاً أوروبا.
ويقول الرجل إنه قدّم استقالته من دوره في

> الخلاف بينه وبين أسامة بن لادن بدأ في «مرحلة السودان»

«القاعدة» قبل أسابيع قليلة من تنفيذ 11 أيلول/ سبتمبر 2001، ولكنه تُعهّد لبن لادن بشكلٍ خاصّ بأنه لن يعلن استقالته خشية «إضعاف الموقف الإسلامي» والتأثير سلباً عليه في مرحلةٍ حساسّة كتلك التي كانت تتصاعد فيها نذر الحرب. وهنا يأتي السؤال: بالرغم من خلافه مع «القاعدة» منهجياً، هل تخلّى عن المبادئ التي كان يؤمن بها؟ مما يبدو من كلامه فإنه لم يتخلّ عن مبادئه التي كان يؤمن بها، وهو يقول: «كل الأفكار التي أؤمن بها اليوم هي نفس الأفكار التي كنت أؤمن بها بالأمس»، مع نفيه أي تغيّراتٍ أو مراجعات حدثت على مستوى فكره وقناعاته. لكن كتاباً أصدره «منبر التوحيد والجهاد» عام 2013 لمؤلفه عبد الله بن عبد الرحمن الشنقيطي، تحت عنوان «هل تراجع ولد الوالد... أم اختُرقت القاعدة؟»، يُقدِّم وجهة نظرٍ مختلفة عن ذلك، خاصّة أنه جاء ردّاً على المقابلات التي قام بها مع قناة «الجزيرة».
يتساءل الكاتب بنبرةٍ تشكيكية عن كل ما قاله والد الوالد في مقابلته، ويقول: «أعتقد أنّ العشر سنوات التي قضاها في إيران (2001 ـ 2012) تغيّرت فيها كل خلايا بدنه، وتغيّرت فيها كل خلايا فكره... ومع ذلك فهو يحاول جاهداً إيهامنا بأنه لم يتغير شيء في فكره ولا في منهجه». ويعمد صاحب الكتاب إلى المقارنة بين مقابلتين لولد الوالد، الأولى قديمة والثانية حديثاً، ليوضّح ما يراه «تناقضاً صارخاً» في كلامه عبر القول: «في الجواب القديم يتحدث بلغة التحدي ويعتز ويفخر بقتاله لأميركا ويعتبر قتل الأميركيين قربة وعبادة ويقول بأنه نذر نفسه لذلك. أما في الجواب الثاني فقد اختفت نبرة التحدي وظهر بدلاً منها السرور بتبرئة أميركا له». وفي سبيل تفنيد كلام ولد الوالد الجديد، يورد مؤلف الكاتب قصيدةَ ولد الوالد، «دموع في مآقي الزمن»، التي يثني فيها على ضربة 11 أيلول/سبتمبر ومن قاموا بها من نشطاء في «القاعدة». ثم يضيف تعليقاً على كلامه: «مهمة الرجل الكبرى هي التخذيل وصد الناس عن الجهاد بشتى الطرق والوسائل». وفي الختام، يخلص إلى القول إنّه يعتمد «الكذب المضلل لخدمة الغرب والإعلام» وكسبيل لتشويه الجهاد والمجاهدين، ثم يضيف أيضاً: «مهما يكن فإن الرجل اليوم لا يحمل أي فكر جهادي ولا ينبغي أن يحسب على القاعدة ولا على التيار الجهادي، إن كان قد تراجع فليس هو أول المتراجعين، وإن كان قد اندسّ فليس هو أول المندسين».
ينشط ولد الوالد اليوم في موريتانيا كشخصيةٍ نخبوية، حيث إنه دائماً ما يقدّم مداخلاتٍ عمومية تتعلق بالوضع العام في البلاد، مثيراً في بعض الأحيان حملات ضدّه. وبرغم ابتعاده عن «القاعدة» واتصاف فكره بتشدد ديني، فإنّه يتحدث مثلاً عن ضرورة «التخلص من أمراض العصبية، والمذهبية، والفصائلية». وفي عودته إلى البلاد، فإن أنشطته أصبحت متعددة ومتنوعة لدرجة أنها لا تقتصر فقط على الجوانب الدينية، بل تشمل أيضاً الجوانب السياسية والثقافية. وهذا ممّا أسهم في تسليط الضوء على شخصيته وتاريخه أكثر فأكثر.